

تاريخ القبول: 2024/02/23

تاريخ الإرسال: 2023/02/10

تاريخ النشر: 2024/05/16

من قضايا الخطاب النثري التواتي القديم From the Ancient Touat Prose Speech Issues

مصطفى رابح¹، إدريس بن خوبا²جامعة أدرار (الجزائر)، mostapharabah47@gmail.com¹جامعة أدرار (الجزائر)، benkhoia.idriss@gmail.com²

المخلص:

في هذا المقال محاولة لسبر أغوار هذا البحر اللجي للخطاب الأدبي التواتي النثري القديم، وهذا بقراءة لنا في الأمثال والحكم والأدعية والحكايا، ومن خلال الخطاب اللهجة التواتية ورقعتها الجغرافية. توات. وما شهدته من اختلاف في أصل التسمية وربما الاختطاط. كما أشرنا في هذا المقال إلى الخلفية المعرفية التراكمية المنتجة لهذا الخطاب، وقبله إلى الحياة الاجتماعية لأصحاب هذا الخطاب الذي يتلاقى كثيرا والخطاب العربي الفصيح في كثير من الخصائص والمميزات بدءاً من العناصر المكونة له مروراً بالأفعال الكلامية ووصولاً إلى المقصدية، كما أن ذا الخطاب التواتي وجدناه يعج بالتجليات البلاغية المتمثلة في أقسامها الثلاثة: المعاني، البيان، البديع مما يجعله جديراً إلى حد خطير بالدراسة والاستنتاج.

الكلمات المفتاحية: الخطاب؛ التواتي؛ البلاغة؛ الحقيقة؛ المجاز؛ النثر؛ الإيجاز؛ المسكوت عنه.

Abstract: In this speech, an attempt is made to highlight the old Touat prose discourse by reading through proverbs, judgment, allegory and tales, and through the speech of the Touat dialect and its geographical patronage- Touat- and what was witnessed as a difference in the origin of its name and perhaps its lettering. We also referred in this article to the cumulative background of

this speech and before it to the social life of the authors of this speech, which converges with the Arab speech in many characteristics and features, starting from its constituent elements through verbal acts to intentionality. We have also found this Touat speech full of the rhetorical manifestations with its three sections: Meaning, statement and exquisite, which makes it dangerously worth studying.

Keywords: Speech Touti, eloquence, Reality, Figure of speech, Prose, Brevity, Deliberative.

المؤلف المرسل: [مصطفى رايح MOSTAPHARABAH47@GMAIL.COM](mailto:MOSTAPHARABAH47@GMAIL.COM)

1. مقدمة:

معلوم أن للعلوم أوائل تفضي إلى أواخرها ومقدمات توصل إلى نتائجها فعلى الدارس أن يعرف المدخل قبل الحقيقة والمظهر قبل الجوهر وبما أن الدراسة ستدور حول الخطاب التواتي القديم يجدر بنا الوقوف حول كلمة تواتي الذي ينسب إليه هذا الخطاب. فالتواتي من توات من هذه المنطقة التي تعرف حالياً أو إدارياً بأدرار. اختلف المؤرخون في أصل هذه التسمية (توات) فالأستاذ أحمد أبا الصافي جعفري يعرض لنا في كتابه اللهجة التواتية الجزائرية مجموعة من الروايات التي يراها أقرب للموافقة إذ يذكر أن الشيخ سيدي أحمد بن عومر (توفي ق 13 هـ) يعود بتسمية (توات) إلى القرن الأول الهجري حيث أنه مما يحكى أن عقبة ابن نافع لما فتح البلاد المغربية ووصلت خيله توات في حوالي 62 هـ سأل عن هذه البلاد هل هي مواتية لنفي المجرمين العصاة المغاربة أوجب بالإيجاب أي أنها تواتي فتداول الناس المصطلح ليصبح عند العامة (توات) ثم يعرج الأستاذ أحمد أبا الصافي إلى رأي الشيخ البكري القريبة دلالاته اللغوية إلى الرأي الأول إذ يرجع أصل التسمية إلى القرن السادس الهجري الذي امتد فيه نفوذ الموحيين إلى المنطقة وأجبروا ساكنة الإقليم على دفع الأتوات الكثيرة وشق عليهم الأمر فعرفوا بأهل الأتوات¹.

وفي أصل هذه التسمية (توات) نجد الأستاذ عبد الرحمن حمادي الإدريسي صاحب كتاب الفوات من تاريخ توات يخالف من يزعم أن أصل الكلمة عربي محض متكى على ما أقره ابن خلدون في مقدمته من "أن بلاد توات وجارتها تيفورارين هما من اختطاط قبائل بني

يالدس من بطون بني ومانو البربر الزناتيين، وعليه يترجح أن يكون لكلمة توات أصل في المعجم الزناتي البربري إلا أنها حرفت بكثرة الاستعمال شأنها شأن جارتها تيقورارين التي تعني في اللسان الزناتي البربري (المعسكرات) والتي عربت في بعض الكتابات إلى قورارة². وهناك اجتهادات جمة لمؤرخين وباحثين في تاريخ المنطقة أمثال محمد بن عمر البوداوي، والقاضي محمد بن عبد الكريم التمنطيبي، ومولاي أحمد الطاهيري وغيرهم حول اختطاطها وتسميتها (توات) وما أوردناه ليس حصراً وإنما دليل على وجود أصرابه إلى حد يصعب فيه ترجيح رواية على أخرى.

إنه لما علمنا أن النتاج الأدبي والخطاب مربوطاً ومشدوداً إلى خلفية ملقيه المعرفية حري بنا أن نعرف من أين تتكون هذه الخلفية المعرفية وما السبب الذي يجعل ثقافة أهل توات متقاربه نسبياً .

إن مما تختص به هذه المنطقة (توات) عن غيرها من المناطق هو أن الأطفال يلتحقون في أوقات متقدمة أو مبكرة بالمدرسة القرآنية وفي الغالب يواجه الطفل في السنة الرابعة من عمره حيث لا تخلو قرية أو قرى هذا الإقليم من وجود مدرسة قرآنية وربما عد سبة ومثلية أن يدخل الطفل المدرسة النظامية قبل القرآنية حيث يقام لهذا الملحق بالمدرسة القرآنية حفلا بهيجا فيه من العادات ما يجعله راسخاً في ذهن هذا الصبي طول حياته. فيتعلم القرآن بدءاً بالحروف الهجائية ثم الصور القصيرة فالطويلة (من الناس إلى البقرة) وإذا وصل المتعلم سناً معينة كتب له المعلم أسفل لوحه قسط من المتون التي تعلمه العقيدة والعبادات كالعبقري والمرشد المعين. كما أن هناك حلقة ليلية للقرآن وتكراره وتعریجاً على بعض الدروس الفقهية³. هاته الحلقة التي كان يحضرها الصغار والكبار. والتخلي عنها أو عدم الحضور لها يعد جرماً عظيماً أو فساداً عريضاً ربما. وتصدق إن أنت اعتبرت أن اللقاءات والفتاحات* الكثيرة سواء أكانت الثابتة أو غيرها لها كبير الأثر في تقارب ثقافات التواتيين لأن في هذه اللقاءات يحدث شيء غير يسير من تبادل وتداول ما من شأنه تكوين مخزون ثقافي يسهم بطريقة أو بأخرى في النتاج الأدبي أو إن شئت الخطاب.

وإن كان الإقليم التواتي يشكل نقطة التقاء عديد القبائل والأجناس البشرية كالعرب والزناتة والطوارق وغيرهم إلا أننا نجد هؤلاء جميعاً موحدين تحت مظلة الدين الواحد والوطن الواحد والتاريخ المشترك لتأتي اللغة العربية وتكون لساناً موحداً لهؤلاء القبائل جميعاً التي جعلت العامية العربية قاسماً مشتركاً بينها وتترك حيزاً يسيراً لبقية اللهجات. هذه اللهجة التواتية التي تتلاقى كثيراً مع العربية الفصيحة بل وحافظت على عديد من الخصوصيات التي قد نجد لها مغيبة في اللغة الأم أحياناً⁴.

إن تراثنا الثقافي القديم وخاصة الشفهي منه صعب الارتداد والمنال وقد يبدو محفوفاً بالمزلق و المهاوي الأمر الذي لا يعني أن يخضع البحث لتلك العقبات ويخضع لها وأن يتركوا هذه الذاكرة الثقافية للأمة توغل في الإهمال والضياع في حين نرى الشعوب يميناً وشمالاً شرقاً وغرباً تتكالب على موروثاتها تسترجعها وترممها وإن كان قصدهم أحياناً ليس الإفادة منها فحسب بل للمباهاة والمفاخرة بها على الآخر وضرب هويته الثقافية والحضارية، ناسين أو متناسين أن الأصل في الثقافات هو الحوار المفضي إلى التكامل والتحاور لا التصادم المفضي إلى التناحر والتناحر.

لهذا الأمر وغيره تراني قصدت البحث في هذا الخطاب وكلي يقين أن الأمر هذا جلل يحتاج طول نفس. وما لا يمكن أن يدرك اليوم يمكن أن يدرك غداً وما تعسر من الظروف على باحث يمكن أن يتيسر لآخر، فيجد هذا ما لم يجد ذلك في المظان سواء أكانت مخطوطة أو محققة أو مشافهة حتى، لأن هذا العمل دؤوب نبيل كانت ولا تزال . بحمد الله . تتعوره طائفة من البعثة المخلصين لهذه الأمة ومرجعيتها الثقافية والحضارية⁵.

وربما يسأل سائل عن سبب اختيار الخطاب النثري وخصه بالدراسة أجبت بما أورده صلاح فضل في كتابه بلاغة الخطاب من أن أرسطو يحدد " فكرة المناسبة المحورية في مفهوم الأسلوب، فلا يقتصرها كما فعل معظم البلاغيين العرب على العلاقة بين السياق الخارجي، أي المقام، وبين القول وقد سبقهم إلى ذلك أيضا البلاغيون الرومان وإنما يجعل المناسبة تقوم بين مادة الكلام ذاتها وأسلوبه، أي بين الموضوعات وأشخاص متكلمين من

ناحية واستعمالاتهم اللغوية من ناحية أخرى، وينتهي من ذلك إلى تحديد أهم وظيفة للأسلوب النثري وهي الوضوح⁶.

ومما لا يخفى على شريف علم أحد أن الموروث الأدبي العربي لا يزال بحاجة إلى البحث الجاد وخاصة درس النثري الذي نجد فيه البحث فاتراً إذا ما قيس بغريمه الشعري وهذا في الأدب الفصيح أما عن الأدب العامي الدارج فإننا نجد الأمر كذلك وأكثر فنحن نعلم أن اللهجة تكون على صلة كبيرة بلغتها الأم مثلما هو الحال والشأن بالنسبة للهجة التواتية مع اللغة العربية الفصيحة.

اللهجة التواتية لها معجمها وتراكيبها وخصائصها المميزة لها عن باقي اللهجات (التارقية -الزنتاتية...) حيث نجد أن تراكيبها القديمة البليغة التي لجأ إليها التواتيون القدامى -ثقة بفهم بعضهم بعضاً -لم تعد مفهومة ولا مستساغة لدى أبنائهم المحدثين، فربما عدوا التعامل والحديث بها أمراً رجعياً مقبلاً.

وإن أنت فتشت في مصطلحات وتركيب هذه اللهجة لوجدتها عربية فصيحة أو على صلة كبيرة وثيقة بها لكن الجهل بالأمر هذا يجعلها محوطة بهالة من الازدراء في استعمالات الكثيرين وهو ما ألفيناه عند السواد الأعظم من المتعلمين في مختلف أطوارهم التعليمية - حسب تجربتنا القصيرة على الأقل - عند بعض المحدثين.

زد على هذا ما يمكن للخطاب التواتي العربي أن يكون قد سبق إليه الخطابات الأخرى، ونحن نعلم أن التواتيين القدامى لم يتلقوا تعليماً نظامياً أو أكاديمياً إلا أننا نجد كلامهم كظاً بالأمثال والحكم والأدعية ذات التراكيب البلاغية البديعة، تلك التي نجد لها ذيوهاً في أوساطهم المعيشة الشيء الذي يجعلنا نتساءل: من أين لهم بهذه التراكيب؟ وما السر في ذيوها وتداولها؟

2 المحسنات البديعية في الخطابات التواتية.

علمت أن البلاغة تنفرع منها علوم ثلاثة: علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع ولكل منها إسهامه وخطره في النص الأدبي فعلم البديع هو العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد مراعات مطابقة الدلالة ووضوحها. وينقسم قسمين إثنتين: قسم يرجع إلى المعنى فيحسنه

ويجمله وهو ما يعرف بالمحسنات البديعية المعنوية. وقسم آخر يهتم بتحسين اللفظ وهو ما يعرف بالمحسنات البديعية اللفظية إذ لا يختلف اثنان في أن السجع مثلاً إذا حسن وجاء لفظه خادم لمعناه حبيب إلى النفس وشوقها ومالت إليه وكان له الأثر الكبير فيها بسبب الإيقاع المتوازن المنسجم. إذ أن فائدة الخطاب المسجوع تكمن في استمالة النفس إليه وشده إياها بذبذباته وإيقاعاته، الأمر الذي يجعله أسهل للحفظ وأثبت في الذهن من غيره من الخطابات⁷ وربما هذا ما جعل التواتين يركنون إليه في كثير من خطاباتهم كأن يقولوا مثلاً: "وقت اللي كان الدفدافي و النفنافي كنت في باط أمك دافي و ملي ربي نزل لعوافي جيت تدي القمح الصافي"⁸ فهذا الخطاب بهذا السجع يجعله سهل التداول سريع الحفظ فهذا الجاحظ يقول: "وقيل لعبد الصمد ابن المعدل ابن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر فالحفظ إليه أسرع والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد، وبقلة التقلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره"⁹. فمن تجليات ما نحن فيه من السجع قولهم:

"قاه قاه واللي خدم شي يلقاه، اللي خدم فاح واللي رقد جاح والشاد في غير الله طاح" حكمة بالغة طالما سمعناها من أفواه التواتيين القدامى هذا الخطاب الذي نجده كظا بالمعاني الراقية الرفيعة التي تبعث على العمل وأي عمل؛ العمل الصالح النافع والذي لا يكون فيه التكلان إلا على الله عز وجل وكأنني بهم يشيرون إلى قوله تعالى: "وقل اعملوا فسبى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"¹⁰ وقوله: "يوم ينظر المرء ما قدمت يداه"¹¹ وقوله: " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"¹².

وفي هذا الخطاب تناص مع القرآن الكريم في غير ما آية إذا تعلق الأمر بالتوكل على الله تعالى ألسنت تقرا قوله تعالى: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه"¹³ وقوله تعالى: "وعلى الله فليتوكل المتوكلون"¹⁴.

فهذا الخطاب يرشد إلى أن الحياة مرتبطة بالعمل وأنه لا مفر منه إلا إليه. ذلك لأن الخدمة عند التواتيين من مرادفات العمل فهم بهذا يرون أن الفوحة¹⁵ لا تأتي إلا بالعمل والكدح وأن من لا يعمل سيكون في نظرهم جائحاً¹⁶ وهم في هذه الحكمة يشيرون إلى العمل الحسن الزين لا القبيح الشين المنطلق من التوكل على الله سبحانه وتعالى.

وما يجعل هذا الخطاب أكثر دوراناً على الألسن وأسرع دخولاً في الأذان هو ما فيه من سجع بين قاه يلقاه وفاح جاح طاح والحديث عن السجع يجعلنا نتحدث عن غيره من الأشكال الصوتية التي لها الأثر الخطير في الخطاب وتداوله وهي تلك الأشكال التي تتعلق أساساً بالمادة الصوتية للخطاب فتحدث لدى المتلقي تأثيراً صوتياً يدل غالباً على الإلحاح أو التناغم أو اللعب بشكل التعبير وكثير ما يميز المتلقون الخاصية الأدبية للنص اعتماداً على هذا البعد الصوتي حيث نجد الأعراف الأدبية المتوارثة تولي اهتماماً خاصاً للأشكال الوزنية في الشعر والنثر معاً إذ يبرز النظم في مجال الشعر يحتل السجع والإيقاع مكانة مرموقة في كثير من الأنماط النثري الفني على اختلاف العصور والأذواق ومن أهم الأشكال الصوتية غير الوزنية تلك التي تؤدي إلى تكرار الأصوات في الخطاب الأدبي وينجم عنها ظواهر هامة¹⁷. ومن هذه الظواهر أيضاً نجد الجناس، هو الذي نجده كثير الاستعمال عند التواتيين في خطاباتهم وخاصة في أمثالهم وحكمهم اسمع لهم مثلاً:

. تعشى وتمشى.

. تغدى وتمدى.

. حوحو يشكر روحو.

. الزنباع وين ينباع.

. الزين جلاب والفحل غلاب.

. اللي درق عليك لخيظ درق عليه لحيظ¹⁸.

والجناس بأنواعه إنما سمي كذلك إلا لأن حروف ألفاظه من جنس واحد وهو لغة: مصدر جانس الشيء الشيء: شاكله واتحد معه في الجنس. وفي الاصطلاح: هو تشابه اللفظين في النطق مع اختلاف في المعنى، وهذان اللفظان المتشابهان نطقاً مختلفان معناً

يسميان ركني الجنس حيث لا يشترط فيه تشابه جميع الحروف بل يكفي ما تعرف به المجانسة¹⁹. والجناس كغيره من المحسنات يحسن إذا جاء عفواً من غير تكلف لأنه إذا تكلف صار قبيحاً يمجّه المخاطب الملقى إليه ونحن في الأمثلة المتقدمة من خطابات التواتين نجد الأمر عفويّاً سليقيّاً لا أثر فيه للكلفة. الأمر الذي يجعله أسرع إلى الأذان وربما هذا ما قصده عبد الطاهر الجرجاني بقوله "ولن تجد أيمن طائراً وأحسن أولاً وأخراً، وأهدى إلى الاحسان وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيبتها. وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ. فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتسي إلا ما يليق بها. ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم..."²⁰

فالجناس على اختلاف أنواعه متمثل في تكرار تلك الملامح الصوتية المشتركة في كلمات وجمل مختلفة بدرجات متفاوتة في الكثافة، الأمر الذي يحدث تأثيراً رمزياً لربطه بين المعنى والتعبير. ليصبح الصوت مثيراً للدلالة. وهذا كله بسبب التلاعب المحبب بالعلاقة الصوتية بين الدوال، فترد الدوال المتشابهة المؤدية إلى مدلولات متغايرة²¹. وإن كان السجع أحياناً عند التواتيين مرتبط بالسمع (أي التصويت) لا الرسم الإملائي. إليك مثلاً قولهم: جا يسعى وضر تسعى وهم يقصدون (جاء يسعى أضاع تسعة) فأنت تجدها متجانسة في الأذن والسمع أكثر من تجانسها في الكتابة و الرسم، لعلمنا أن أهل نوات كغيرهم من العوام في عاميتهم قدموا المشافهة على التدوين.

ونجد أيضاً في خطابات أهل نوات ما يعرف عند البلاغيين بتجاهل العارف المحسنات البديعية المعنوية وهو سوق المعلوم مساق غيره بنكتة المبالغة في التشبيه وهو عبارة عن سؤال المتكلم عما يعلم سؤال من لا يعلم أن شدة التشبيه الواقع بين المتناسبين أحدثت عنده التباس المشبه بالمشبه به، وفائدته المبالغة في المعنى نحو قولك: أوجه هذا أم بدر؟ فإن المتكلم يعلم أن الوجه غير البدر إلا أنه لما أراد المبالغة في وصف الوجه بالحسن استقهم بقوله أهذا وجه أم بدر ففهم من ذلك شدة الشبه بين الوجه والبدر اسم لقول أحدهم يمر عليه شاب لا يقره السلام " زليله ولا بنادم"²² وهو يريد أنت زائلة أو ابن آدم؟ فالشيخ

العجوز يسأل هذا الشاب وإن كان يعلم أنه إنسان ابن آدم عن ما إن كان إنساناً أو حيواناً زائلة ليوهمه أن الشبه بينه وبينها كبير جداً إلى درجة أحدثت عنده التباس بين المشبه الذي هو هذا الشاب والمشبه به الذي هو الحيوان. ونستشف من هذا الخطاب أن إفشاء السلام من الصفات الحسنة الحميدة المنتشرة في الأوساط التواتية فالأخذ بها محبوب والتارك لها مبعوض وأكثر من هذا ربما أخرجه من زمرة أبناء آدم إلى زمرة الحيوانات و تجاهل العارف قد لا يقوم على المشابهة فقط وإنما قد يكون لنكته بلاغية كتعظيم أو تحقير أو تقرير أو تعريض أو إيناس ألم تسمع قول الله تعالى: "وما تلك بيمينك يا موسى" ²³ إذ من البديهي أن الله تعالى يعلم ما كان في يد موسى عليه السلام ولكن الله سأله استثناساً لأن المقام مقام رهبة وهيبة واحترام ومن أسلوب تجاهل العارف في هذا الذي لا يقوم على المشابهة ما نجده في قولهم: "جيت" وهم يقصدون جئت أو أنك هنا وهم يقصدون أنت هنا لمن يروه أمامهم و يريدون سماع كلامه و صوته ليستأنسوا به.

3 المجاز والحقيقة في الخطابات التواتية.

الحقيقة والمجاز ثنائية طالما أسألت حبراً بين النقاد في الخطابات العربية ولهم "في هذا الفن من فنون التصوير البياني -الحقيقة والمجاز . آراء متباينة متضاربة فمنهم من يرى أن الكلام كله حقيقة... ومن العلماء من يذهب إلى أن اللغة كلها مجاز ومنهم من يرى أن اللغة تشتمل على الحقيقة والمجاز" ²⁴.

من حيث مقصدية الملقى لهذه الخطابات إذ من الضروري النظر فيما يريده المخاطب أو المرسل من وراء نصه الخطابى وما يرنو إلى تحقيقه لعلنا أن أهم شيء يتأسس عليه الاتصال ككل هو المعنى الذي يدور حوله التشكيل اللغوي. "ثم لا ننسى أن النبية أو القصد من الأمور التي تصل إليها عن طريق الحدس والتجربة والبنية اللسانية للخطاب، وهذا سيفضي حتماً إلى العناية بالجانب الضمني و بآليات الكشف عنه، و من بين هذه الضمنيات نجد الافتراض المسبق و القول المضمّر" ^{فبعض} من قصار النظر عاب على التواتيين قولهم للحاج أو الشخص القاصد بيت الله الحرام إذا ذهب "عقوبة لعينيه" و هم يقصدون العقاب لعينيه. وفي هذا التركيب لو أمعن وأمعن النظر ضرب من أضرب المجاز

فمثال هذا قوله سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام "وإني كل ما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في أذانهم"²⁵

فهم بقولهم هذا أي "عقوبة لعينيه" يرجون الله ويدعونه أن يعيده سالما والعينين هما جزء منه. وإن نظرت في خطاب الله تعالى "فك رقبة" أبقت أن المقصود في هذه الآية الكريمة هو فك أو عتق العبد كله. فلا يعقل بأي حال من الأحوال أن تأخذ الرقبة لحالها إذ بأخذها يتم الهلاك. وإنما هنا أطلق الجزء وأريد به الكل على طريق المجاز المرسل أي أنهم لا يريدون عينيه فقط وإنما أطلق العينين مرين من ذلك شخصه كله.

و الحجاجية في أي خطاب متعلقة بالتركيب ككل اقرا مثلا قوله تعالى "يجعلون اصابعهم في اذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين"²⁶. فأنت تعلم علم اليقين أنهم لا يضعون أصابعهم كلها في أذانهم وإنما جزء منها وهذا الأسلوب دأبت عليه العرب في كلامها والقرآن على أساليبهم جايء فهنا ذكرت الأصابع التي هي الكل مقصود بها الأنامل أو أطراف الأصابع التي هي الجزء سيرا على سبيل المجاز. حيث أن القيمة الدلالية ليست متعلقة باللفظية في حد ذاتها وإنما سياقها. ويقول التواتيون "أي طيح السحاب" و هم يقصدون أن ماء السحاب هو الذي يسقط على سبيل المجاز وهذا يجدونه في كلام الله عز وجل قال تعالى: "واسأل القرية التي كنا فيها"²⁷ أي من في القرية سكانها ويقولون فلان يأكل الناس وهم يقصدون أن هذا الشخص لا يعطي الأجير أجره إن أعطاه إياه فغير كامل. والتركيب مجازي لأن الناس لا يأكل بعضهم بعضا بمفهوم الأكل الحقيقي ويقولون مثلا للصبى إذا كان حافيا ووجد الأرض حامية فبكي فلان حماتو الشمس أي أحتمته الشمس والشمس لم تحميه وإنما أحمت الأرض التي كانت سببا في بكائه على سبيل المجاز المرسل والعلاقة السببية وغير هذه التراكيب كثير في اللهجة التواتية وإن أنت أردت الحديث عن الحقيقة وجدتها حاضرة هي الأخرى في خطاباتهم كيف لا وهي الأصل وأنت تسمع قولهم مثلا ما يحك لك لا شعرك ولا ظفرك وكأنني بهم يشيرون إلى قول العرب قديما ما حك جلدك مثل ظفرك أي أن الذي ينفحك هو ما كان لك وتملكه ملكا حقيقيا فأنت تلمس

في هذا الخطاب حقيقة بعيدة كل البعد عن المجاز ولو استقرأت خطابات التواتين وجدت حضور الحقيقة كحضور المجاز في الحكمة والمثل والدعاء على حد سواء.

إن مما لا يخفى على شريف علم أحد أن النتاج الأدبي سواء أكان عربياً فصيحاً أو لهجياً عامياً لا يمكن أن يكون إلا عن خلفية معرفية تراكمية مكونة من السماعات أو القراءة أو المعاشات السابقة تلك التي تترجم بعد ذلك قولاً مأثوراً أو حكمة بالغة أو مثلاً سائراً ولو أمعنت النظر في كثير من كلام التواتين لوجدته اقتباساً من القرآن الكريم. الاقتباس الذي "هو أن يُضمّن المتكلم كلامه كلمة أو آية من آيات الكتاب العزيز وهو ثلاثة أقسام محمود مقبول مباح مبذول و مردود مردول"²⁸ فأنت تسمع لهم قولهم: مثلاً * "ألا بالتي": التي هي دعوة إلى المحاوراة بالحسنى، هاته المقتبسة من قوله تعالى: "... بالتي هي أحسن"²⁹ والتي ذكرت غير مرة في كلام الله تعالى.

* "مالك": التي بمعنى الاستفهام مقتبسة من قوله سبحانه وتعالى: "مالك لا تأمننا على يوسف"³⁰.

* "إن ربهم بهم": وإن كانت تقال في النقود و في المال إلا أنها مقتبسة من قوله تعالى: "إن ربهم بهم يومئذ لخبير"³¹.

* "عسى خير": هذه المتداولة كثيراً في المصائب والملمات فتقال للمبتلى راجين أن يكون هذا الابتلاء خيراً له وهي تكون من قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن"³² أو من قوله تعالى: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم"³³. * "شهودو جلودو": يعنون بهذا شهوده جلوده. ويقال هذا للذي يظهر على وجهه أو يبوح لسانه بما يخفي قلبه لعلمهم أن العيون مغاريف القلوب وأن ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه. ألم تقرا قوله تعالى الذي يقتبسونه منه "وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا"³⁴ وإن كان هذا الأمر يوم القيامة فحجية هذه الخطابات مستمدة من ارتباطها بكلام الله عز وجل الذي لا ينطق عن الهوى وهو له في ذات الآن في نفوس المخاطبين (المرسلين) كثيراً القداسة والتعظيم. القرآن الكريم الذي لا نجد بيتاً يخلو منه و لا قرية و لا

حي. إذ عندهم ما يعرف باسم الحزب الراتب. هذه الحلقة يقرعون فيها حزين كل يوم ليتموا القرآن كله مع تمام الشهر. و قد علمنا بل و عرفنا بعض الشيوخ حفظوا القرآن من خلال السماع فقط. لذلك صاروا يتناصون معه في خطاباتهم لأن معانيه و أحياناً آياته تتنازل عليهم انشياً إذا أرادوا الحديث و الخطاب شاعوا ذلك أو أبوا.

4 الإيجاز والمسكوت عنه في خطابات أهل توات.

إنك لو فتشت في قضايا خطابات اللهجة التواتية ألفت أن أهم ما يمكن أن يقف عليه الدارس "هذه اللهجة هو شدة الصلة بينها وبين اللغة العربية الفصحى إلى الدرجة التي تجعلك أحياناً تقف معها - استعمالاً - على بعض التعبيرات والصيغ الفصيحة والمتجذرة في لغتنا العربية"³⁵. ومما وجدناه منتشر من الأساليب والتراكيب في الخطابات التواتية القديمة هو أنهم يبدؤون الحكمة أو المثل أو إن شئت الخطاب - أحياناً - ثم يتكلمون شرف الإتيان إلى المخاطب أو السامع المتلقي، الشيء الذي ينم على أن ثقافة طرفي الخطاب (الملقى و المتلقي) متقاربة إن لم نقل متطابقة و إلا فكيف يلجؤون إلى هذا الأمر. إذ مما سمعت ووجدت أكثر دوراناً على ألسن التواتيين الأقحاح قولهم: "كلام ما ينقال كامل" وهم يعنون "الكلام لا يقال كله" ما يدل على أنه يجب أن يقال بعضه ويلمح للبعض الآخر أو يسكت عنه، وكم يجدو للأمر هذا عظيم المتعة بينهم لفهم بعضهم بعضاً. و يجد في ذات الآن غيرهم ممن لم يصل درجة ثقافتهم - المتداولة - أو كان غير محيط بما يقولون من أمثال وحكم وأدعية كبير الحرج وجم الضجر في تلقي خطاباتهم وربما قصدوا هذا أحياناً وربما جاء الأمر هذا من عفو خاطر. "وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الأبواب كشفه كما قيل: "لمحة دالة"³⁶. فالمبرد يجعل الإيماء أو الإشارة كافية للدلالة على مقصدية الخطاب عند المتلقي إن كان في درجة الملقى. الأمر الذي يعود بنا إلى الملفوظات:

أ- الملفوظات التقريرية: التي تحتل الصدق أو الكذب والمتمثلة في الجمل الخبرية كقولهم مثلاً "وقت اللي كنت بشاني كنت نخدم داري وجناني وملي قلت من العناية صحيت شفافية" في هذا الخطاب وصف لحقيقة لا يعرف صدقها أو كذبها إلا من عايش هذا المخاطب (المرسل) الذي يدعي أنه كان يعمل بجد واجتهاد ولا يغلبه

شيء من أمور حياته في وقت الذي كان له الشأن لأن الحياة التواتية القيمة كانت متمثلة في هذين المحورين المنزل أو البيت والبستان أو كما يسمونه الجنان.

ب- الملفوظات الانجازية: وهي التي لا تحتل الصدق أو الكذب³⁷ وإن كانت جملًا خبرية أحياناً إلا أننا نشتم منها شيئاً من الطلبية لأن هذا الخطاب ومن ورائه المخاطب (المرسل) لا يقرر أو يخبر وإنما يأمر ويحث عن العمل والتوكل على الله.

وتصدق إن أنت اعتبرت أن الإيجاز هو عماد خطابهم الأدبي النثري وهذا ما يتجلى فيما يعرف بالإتباع والمزاوجة وهو أن يؤتى بكلمتين متواليتين على روي واحد لكن معنى الأخرى ليس هو معنى الأولى واليك طائفة من هذه التراكيب:

. برق و عرق: ويؤتى بها للإنكار الشديد للشيء.

. حاجيتكم ما جيتكم: وهي الوظيفة الصفر في الحكاية الشعبية أي بها تبدأ الحكاية.

. خفيف ظريف: وهذه لمن يجمع بين خصلتين جميلتين في إحداها سرعة الإنجاز.

. زورة و نورة: تقال لمن ينجز عملين حسنين ثانيهما متعلق بالأول³⁸.

هذه التراكيب على سبيل التمثيل لا الحصر إذ لا يخفى عليك ما في هذه الخطابات القصيرة الوجيهة من المعاني الكبيرة لعلمهم أن الخطاب الموجز يحافظ على نشاط النفس ويبعد السأم والملل عنها. وعليه فهو أقدر على التأثير في المتلقي لسهولة حفظه وقرب مأخذه فخير الكلام عندهم وعند العرب قبلهم ما قل ودل، أو قل وكفى وشره ما كثر وألهي، فكلما أجمع اللفظ وأشبع المعنى بلغ الخطاب قمته البلاغية³⁹. و الإيجاز قد يكون بحذف الكلمات فالإيجاز بهذا المفهوم إنما هو اختزال بعض عناصر الجملة الواجب ذكرها في السياقات العادية على أن تفهم معاني هاته العناصر المحذوفة لاستقامة السياق النحوي والدلالي على حد سواء⁴⁰ كقولهم مثلاً: (الغيتا الغيتا) بصوت عالٍ ففي هذا الخطاب حذف إذ تقدير الخطاب نريد الغيتة منكم أو بعبارة أخرى نريد إعانتكم لنا. و هذا مجاز يعود إلى نزعة الاقتصاد في الكلام ما دام المعنى المقصود من وراء الخطاب يفهم من سياقه⁴¹.

ونحن إن أردنا الإيجاز بالحذف فإننا نجد عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز يقول: "هذا الباب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به

ترك الذكر والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذب أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين، وهذه جملة قد تتكررها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر⁴² وهذا ما نجده في قولهم مثلاً "بخير" في إجابة من سألهم عن حالهم إذ الأصل هو "حالي بخير"، وقولهم للرأي الصائب "هذا رأي" والأصل هذا رأي صائب، وقولهم إذا كانوا يعلمون الشيء "على بالي" وأصلها الأمر على بالي⁴³.

و الإيجاز قد لا يخلو منه خطاب تواتي أنظر إن شئت إلى الدعاء الذي كانت ألسنتهم به صداحة أينما حلو و حيثما ارتحلوا . إيجابا وسلباً . وهم لا يجدون لمن أحبو أو لمن أسدى لهم معروفا خيراً منه أليسوا هم من يقولون "يفتح عليك" لمن تكرم عليهم وأعطاهم شيئاً وهم يقصدون أن يفتح الله عليه أبواب الخير ألم يقل الله تعالى: "فتحننا عليهم أبواب كل شيء" ⁴⁴. وقال أيضاً: "... لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض"⁴⁵. ويقولون "يسلمك" وهم يريدون يسلمك الله من الأضرار أو من كل مكروه. هذا عن دعاء الإيجاب أما عن دعاء السلب فيقولون لمن فعل شيئاً مقبياً "عديمها" وهم يقصدون يعدم الله صحتك ويقولون "كصيرهم" أيضاً لمن عمل سوءاً بيديه وهم يقصدون كسر الله يديك ويقولون "لقوه" لمن قال كلاماً فاحشاً غير مقبول، و اللقوة ضرب من الفالج و هو داء يأخذ في الوجه فيعوج و يلتوي شذقه إلى جانب فمه⁴⁶. وأصل الدعاء ابتلاك الله باللقوة ففي هذه الأدعية وغيرها نجد الإيجاز جلياً من خلال ما يسكت عنه من الدعاء.

5 خاتمة.

من خلال ما تقدم يمكن القول بأن الخطاب الأدبي النثري التواتي القديم يعد مادة خصبة قابلة للاستتطاق باعتبارها نتاجاً مليئاً بالتجليات التداولية و الحضور الدلالي الناجم عن الأبعاد البلاغية التي يقصدها التواتيون من خلال هاته الخطابات فتقافة أهل توات الدينية المرتبطة إلى حد كبير بالقرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف جعلها تنتج هاته الخطابات المتلاقية في كثير من النقاط مع هذين النصين المقدمين عند المسلمين. الأمر الذي جعل لهذه الخطابات دوراً على اللسان و قبولاً في الأذان و خلوداً عبر الزمان في هاته الفترة

الزمنية الطويلة نسبياً بعيداً على التدوين وما يكسب النص من تمكين كالاهتمام بهذا الموروث بإيجاد مناهج خاصة لدراسته و إقامة ملتقيات خاصة له.

6. الهوامش:

¹ ينظر أحمد أبا لصابي، اللهجة التواتية الجزائرية معجمها بلاغتاً أمثالها و حكمها عيون أشعارها، دار الكتاب العربي ط 1، ج 1، ص 14 . 15.

² عبد الله حمادي الادريسي، الفوات من تاريخ توات وصحاري الجهات، دار الكتاب الملكي، ط 1، ج 1، ص 24 . 25.

³ ينظر الشيخ محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، إلى منطقة توات لذكر بعض الأحكام و الآثار و المخطوطات و العادات و ما يربط توات من الجهات، دار المعرفة الدولية للنشر و التوزيع الجزائر (د ط) 2011، ج 1، ص 291.

* والمقصود به الدعاء الجماعي عند التواتيين.

⁴ ينظر ابا الصافي، مرجع سابق، ج 1، ص 15.

⁵ ينظر مختار حبار، الخطاب الأبي القديم في الجزائر دراسة ببليوغرافيا، دار الأديب (د ط) 2007، ص 13.

⁶ ينظر صلاح فضل، مرجع سابق، ص 142.

⁷ ينظر ابن عبد الله شعيب أحمد، بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية، ابن خلدون للنشر والتوزيع، دت، دط، ص 360.

⁸ مثل يضرب لمن ينام وقت الزرع و البذر و الحرث ثم يبغى بعد ذلك الغلة.

⁹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان و التبيين، دار فكر الغربي بيروت، ط 1، 2000، ج 1، ص 278.

¹⁰ سورة التوبة الآية 105

¹¹ سورة النبأ الآية 40

¹² سورة الزلزلة الآية 07.

¹³ سورة الطلاق الآية 03.

¹⁴ سورة إبراهيم الآية 12.

- ¹⁵ الفوحة: فاح الشيء اذا اصدر رائحة طيبة زكية ترتاح لها النفس فهم يقولون للبخور القَاح.
- ¹⁶ جائحاً: جاح يجيح جيحاً و جياحة والجائح عندهم هو من حاد عن الطريق الصحيح.
- ¹⁷ ينظر صلاح فضل، مرجع سابق، ص 247.
- ¹⁸ ينظر أحمد أباً لصادفي، مرجع سابق، ج 2، ص 423.
- ¹⁹ ينظر إين عبد الله، مصدر سابق، ص 429.
- ²⁰ أسرار البلاغة، ص 100.
- ²¹ ينظر صلاح فضل، مرجع سابق، ص 249.
- ²² زائلة: من زال يزول فهو زائل وهي زائلة أي بمعنى فانٍ غير باقٍ ولا دائم ويقلبون الهمزة التواتي قصر كلمه زایل و زائلة قصرها على العجماوات والبهايم الأمر الذي أكسبها دلالة سلبية مقينة عند أهل المنطقة.
- ²³ سورة طه الآية 17.
- ²⁴ ينظر ابن عبد الله شعيب أحمد، مرجع سابق، ص 104.
- ²⁵ سورة نوح الآية 7.
- ²⁶ سورة البقرة الآية 19.
- ²⁷ سورة يوسف، الآية 82.
- ²⁸ صفي الدين الحلبي، شرح الكافية البديعة في علوم البلاغة و محاسن البديع، ص 326، تحقيق الدكتور نسيب نشاوي ديوان المطبوعات الجامعية، دت.
- ²⁹ سورة النحل الآية 125.
- ³⁰ سورة يوسف الآية 11.
- ³¹ سورة العاديات الآية 11.
- ³² سورة الحجرات الآية 11.
- ³³ سورة البقرة الآية 216.
- ³⁴ سورة فصلت الآية 21.
- ³⁵ أحمد أباً الصافي جعفري، مرجع سابق، ج 1، ص 19.

- ³⁶ محمد بن يزيد المبرد، الكامل، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة ناشرون، الجزء الأول، ط2 2013، ص 105.
- ³⁷ ينظر سامية بن يامنة، مرجع سابق، ص 56.
- ³⁸ ينظر أحمد أبا الصافي جعفري، مرجع سابق، ص 30.
- ³⁹ ينظر ابن عبد الله شعيب أحمد، مرجع سابق، ص 334، 335.
- ⁴⁰ ينظر صلاح فضل، مرجع سابق، ص 249.
- ⁴¹ ينظر المرجع نفسه ص 249.
- ⁴² ينظر، ابن عبد الله شعيب أحمد، مرجع سابق، ص 276، 277.
- ⁴³ ينظر أحمد أبا الصافي جعفري، مرجع سابق، ص 29، 30.
- ⁴⁴ سورة الأنعام، الآية 44.
- ⁴⁵ سورة الأعراف، الآية 96.
- ⁴⁶ ينظر شرح مقامات الحريري، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت لبنان، د ط، دت، ص 362.